مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد 40 – عدد 4 (2024):1-12

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 40-No.4 (2024):1-12

العنف وأثره في البناء النَّفسي للشَّخصيَّة المحوريَّة في رواية (فسحة للجنون) لسعد محمَّد رحيم

نجاح نوري خزعل*[1]، ماجدة محمد حمود[2]

1* طالب دكتوراه في قسم اللغة العربيَّة- كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة- جامعة دمشق.

2 أستاذة في قسم اللغة العربيَّة- كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة- جامعة دمشق.

majda.hamoud@damascusuniversity.edu.sy

الملخَّص:

تسعى هذه المقالة إلى تناول ظاهرة العنف وأثره في البناء النَّفسي للشَّخصيَّة المحوريَّة في رواية فسحة للجنون للكاتب العراقيِّ سعد محمَّد رحيم؛ إذ تبدأ الدراسة بمقدِّمة تتحدَّث عن الرِّواية والشَّخصيَّة بصورة عامَّة، ثمَّ مدخل نظريٍّ يعرِّف مفهوم العنف بوجهٍ عام وعن الدِّراسات الَّتي تسعى إلى الوقوف على أنواعه وأسبابه، ووجوده بوصفه ظاهرة في رواية (فسحة للجنون) بصورة مكثَّفة جدًّا، ثمَّ تنتقل الدِّراسة إلى التَّحليل الَّذي يتناول أمثلة من الرِّواية تتضمَّن محطَّات من حياة بطل الرِّواية، تصوِّر العنف. وكان التَّركيز على أبرز أنواعه؛ العنف الجسديُّ والنَّفسيُّ واللَّفظيُّ والجنسيُّ (الاغتصاب) ليتمَّ تحليلها ودراستها وتوضيح أثرها في الشَّخصيَّة المحوريَّة، ثمَّ تنتهي الدِّراسة بخاتمة تتضمَّن أهمَّ النَّتائج الَّتي استخلصتها من تتبُّع أحداث الرِّواية، والَّتي تتَّصل بظاهرة العنف، ثمَّ قائمة للمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: البناء النَّفسيُّ للشَّخصيَّة الرِّوائيَّة، العنف، سعد محمَّد رحيم.

تاريخ الإيداع: 2023/09/06
تاريخ القبول: 2023/09/21

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

Inclination to violence and its impact on the psychological structure of the central character in a novel (Space for Madness) by Saad Muhammad Rahim

Najah Nouri Khazaal1 Al-Muslihi*[1], Magda Mohamad Hammoud[2]
1 PhD student in the Arabic Language Department - Faculty of Arts and Human Sciences - Damascus University.
2 Professor in the Arabic Language Department - Faculty of Arts and Human Sciences - Damascus University
majda.hamoud@damascusuniversity.edu.sy

Received:06 /09/2023
Accepted: 21/09/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

Abstract:

This article seeks to study the phenomenon of violence and its impact on the psychological structure of the central character in the novel Space for Madness by the Iraqi writer Saad Muhammad Rahim. Standing on its types and causes, and on violence and its existence as a phenomenon in the novel (Space for Madness) in a very intensive manner, then the study moves to the analysis that deals with examples from the novel that include stations in the life of the protagonist, depicting violence. The focus was on the most prominent types; Physical, psychological, verbal, and sexual violence (rape) to be analyzed, studied, and its impact on the central character clarified. Then the study ends with a conclusion that includes the most important results that I drew from tracking the events of the novel, which are related to the phenomenon of violence, then a list of sources and references.

Keywords: The Psychological Structure of The Fictional Character, Violence, Saad Muhammad Rahim.

المقدِّمة:

تعدُّ الرواية– اليوم– من أكثر الأنواع الأدبيَّة انتشاراً في العالم وأقدرها على تمثيل الواقع، وتمثُّله وإعادة إنتاجه بخطاب أدبيٍّ يتَّسم بالجماليَّة والإبداع، لهذا أخذت حيِّزاً كبيراً، ولاقت إقبالاً واسعاً سواء من المبدعين (مبدعي النَّص) أم النَّقاد والباحثين ومتذوِّقي الفنِّ الرِّوائيِّ، حتَّى إنَّها غدت «أوسع أنواع التعبير تذوُّقاً لدى جمهور واسع من القرَّاء لكونها شكلاً ثقافيّاً عالميّاً»[1]؛ كما تعدُّ الرواية فنًّا مهمًّا، لتجسيد أحداث الإنسان وتاريخه وتطلُّعاته وهمومه وأحلامه، فمحورها الرئيس هو الإنسان وما يحيط أو ما يختلج بداخله من مشاعر، فهي صياغة الواقع وإعادة خلقه بأسلوب فنِّي وشخصيَّات متخيَّلة ولغة أدبيَّة تحمل معاني واقعها المعيش كلّها، فالرواية لا يمكن أن تنسلخ عن البيئة الَّتي كوَّنتها، ولكن ليس كلُّ الروايات تملك تلك الخاصية، فبعض الكتَّاب يجيدون خلق الشَّخصيَّات بطريقة تجعلنا نتفاعل معها ونتعايش مع همومها وأفراحها وكأنَّها حقيقيَّة، وهذا ما يميِّز الكتَّاب فيما بينهم، وهو كيفية استخدام التقنيات وخلق وجهات النظر المختلفة للشَّخصيات، وخلق الصِّراعات ليضع المتلقِّي أمام عالم يتحرَّك بتفاصيله كلّها، وذلك من خلال لغة سرديَّة تحمل معاني الإنسان، وقد جرى توظيفها ضمن تقنيات تجعل الرواية أقربَ للواقع من غيرها من الفنون.

ماهية العنف:

يسعى الدارسون للوصول إلى ماهية العنف وأسبابه، وقد شغل هذا الموضوع الباحثين قديمًا وحديثًا، وصُنِّفت فيه مئات الدراسات، منها ما تناوله من جانبه الجسديِّ أو الدِّينيِّ أو التَّاريخيِّ أو السِّياسيِّ أو الاجتماعيِّ أو الفلسفيِّ أو الاقتصاديِّ... الخ، لذا فإنَّ دراسة العنف ليست بالأمر اليسير فـ «ظاهرة العنف من الظواهر المعقَّدة والمركَّبة الَّتي أطنب الباحثون والدارسون في الحديث عنها، من خلال البحث في أسبابها ودوافعها» [2] فالنَّظر إلى اتِّساع هذا المفهوم وتشعُّبه وكثرة أسبابه وتصنيفاته وأنواعه جعل الباحث يعمد إلى التركيز على أنواع العنف الأكثر بروزًا في رواية (فسحة للجنون)، والوقوف عليها تفسيرًا وتحليلًا لتوضيح أثرها في مسار حياة الشَّخصيَّة المحوريَّة. أمَّا الشخصيَّة الروائيَّة فهي أساس العمل الروائي الَّتي تدور حولها الأحداث ومن خلالها تتكشَّف البنى الأخرى (زمان ومكان وحدث)، وتتشكَّل لغة السرد من خلال الحوارات والمونولوج الداخلي ووجهات النَّظر، فهي بمثابة العمود الفقري في البناء السردي، ولأنَّ الرِّواية تركِّز على الإنسان وقضاياه كان من المحتَّم أن تكون شخصيَّاتها «مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار العامَّة، فلا مناص من أن تحيا الأفكار في الأشخاص، أو تحيا بها الأشخاص وسط مجموعة من القيم الإنسانية، يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلاً مع الوعي العام، في مظهر من مظاهر التفاعل على حسب ما يهدف إليه الكاتب» [3]. ومن خلال هذا التقديم المكثَّف سنلج إلى عالم رواية (فسحة للجنون)، لنقف على شواهد العنف وآثاره المدمِّرة في حياة الشخصيَّة المحوريَّة (عامر) أو (حكمت) أو كما يسمِّيه أبناء مدينته (حكو).

1 – تاريخ الرواية الحديثة، ر. م. ألبيرس، تر: جور سالم، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1982: 6.

2– العنف ضد الإنسان في الرواية العراقية قراءة في رواية حيدر كاظم العموري "لا حياة في هذه المدينة، آلاء محسن حسن، العراق/ جامعة المثنى/ كلية التربة والعلوم الإنسانية، المصدر: مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، الناشر: مكز جيل البحث العلمي، ع 67، يناير 2012، ص31

3 – النقد الادبي الحديث، محمَّد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، د. ط، 1986: 562.

عتبةُ العنوان (فسحة للجنون):

الفسحة تكون للحبِّ للتَّنفُّس للأمل بعد ضغوطات الحياة وجري الإنسان ساعيًا للعيش الكريم والحياة الآمنة، ولكن أن تكون فسحة للجنون هذا ما لم يتصوَّره العقل البشريُّ، ولكن الروائي سعد محمَّد رحيم جعل (فسحة للجنون) أكثر أمانًا لبطله من جحيم الواقع وبطش السُّلطة وعنفوانها، فأيُّ واقع هذا يصيبك بالجنون أو يجعلك تلبس ثوبه هروبًا منه.

من هو «حكو – حكمت»؟ بطل هذه الدراما الحزينة؟

هو عامر حميد عباس من سكان بغداد طالب في أكاديمية الفنون الجميلة مرحلة ثانية، يجيد فنَّ الرسم، يعشق القراءة، لم ينتم إلى حزب السلطة، والده نائب ضابط في الجيش العراقي، يحب الخمرة والنساء، يعيش وسط جوٍّ عائليٍّ مشحون بالمشاكل والفقر لديه أخ يعمل في شركة الجلود لن يلتقيا كثيرًا، يقع في حبِّ «نهلة» صديقة إحدى زميلاته في الكلية، تكون موديلًا لرسوماته، يأسرهما الحبُّ، تكثر المواعيد بينهما/ هي ابنة محام يساري سابق، ينفذ بجلده من مجازر الانقلاب وسجونه في 8 شباط 1963، يعتزل السياسة والمحاماة ويحترف بيع الأقمشة في الشورجة. كان عسس السلطة بالمرصاد لكلِّ من تحوم حوله الشبهات ممَّن لا ينتمون لحزب السلطة، وخصوصًا في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن العشرين، يسترسل «عامر» في حديث حول واقع البلد في سهرة احتساء الخمرة مع عدد من زملائه، فيكون صيدًا ثمينًا لقوى الأمن، بعد أن استلموا شريطًا مسجّلًا لحديثه في هذه السهرة من قبل أحد جلاسها. يمرُّ في سلسلة من أساليب التعذيب الوحشي بعد إلقاء القبض عليه بالقرب من باب الكلية بعد جولة ممتعة مع حبيبته، يغيب تمامًا دون أن يعلم أيٌّ من معارفه أو أهله باعتقاله، ومكان سجنه، أو سبب الاعتقال [4] .

حكمت هو محور الرواية أكثر من الحرب نفسها، لأنَّه الشاهد على قساوة النظام وعلى حربه المجنونة، هذا الاسم (عامر) طالب الفنون الجميلة قسم (الرسم) كان كورقة الرسم البيضاء تخطُّ السلطة على جلده أشدَّ أنواع التعذيب. وليرسم السجن على ذاكرته بقع الضوء البيضاء ولتحرق الحرب أمام ناظريه جمال مدينته بأشجارها وأنهارها وحيواناتها عامر أو حكمت أو حكو كان النافذة التي نرى من خلالها كلَّ هذه الثيمات.

إنَّ أبرز ما يميِّز قساوة السلطة الحاكمة حينذاك ووحشيتها هو العنف الجسدي، ويقصد به الإيذاء والعقوبات الجسدية ضربًا على الضحية ليمحو ذاتها ويهين كرامتها من أجل إقصائه وإلغائه ماديًّا ومعنويًّا أو إخضاعه لسلطتها. ورواية فسحة للجنون حملت كثيرًا من الأمثلة على ذلك رغم أنَّها تحدَّثت عن ثيمة الحرب، ولكنَّها وضعت زمناً ليس بقليل من حياة الشخصيَّة المحوريَّة وهي تعيش تحت سياط السلطة وقسوتها وسجونها الانفرادية، ليحدث التحوُّل الكبير لها من حيث إنَّها شخصيَّة سليمة إلى شخصيَّة فقدت ثلاثة أرباع عقلها وتسعين بالمائة من ذاكرتها، وما يلفت الانتباه هنا أيضًا أنَّ الكاتب لم ينقل لنا أحداث الحرب وصور الدمار من خلال وجهة نظر الشخصيَّة وهي سليمة وإنَّما تمَّ تصوير الحرب برؤيتها وهي مجنونة، أي بعدما حدث ذلك الشرخ والتحوُّل في ذاتها، فيوحي الكاتب أنَّ الحرب مجنونة لا يتمُّ استيعابها إلَّا بهذه الروح المجنونة، أو أنَّ الشخصيَّة اتخذت طريق الجنون لتعيش تحت قذائف الحرب بحسب مفهومها.

إنَّ الحرب أرحم من سياط السلطة وقسوتها، وأوَّل عنف جسديٍّ تعرَّضت له الشخصية بعد الاعتقال الغامض، «حلقه جافٌّ، لسانه قطعة جلد يابس، وعطشه لا يُطاق.. حاول أن يبلِّل لسانه بقطرات من عرقه.. كانت مالحة، زادته عطشًا، وألمًا في البلعوم. وظلَّ

4–ينظر، «فسحة للجنون» سعد محمَّد رحيم، حميد الحريزي، مجلة الكلمة، العدد 130 فبراير 2018.
http://www.alkalimah.net/Articles/Read/19560

يفكِّر بالماء، يحلم بالماء» [5] يكثر الكاتب في هذا المقطع استخدام مفردات (جاف، يابس، مالحة) في وصفه، ومن الأفعال المضارعة التي تدلُّ على استمرارية الفعل (يبلل، يفكر، يحلم)، ومن خلال هذا الأسلوب يعبّر الكاتب عن الحالة المرَّة التي تمرُّ بها الشخصيَّة بأقلِّ الكلمات وأشدِّها تصويرًا للحالة، ولو اتَّخذ السرد التفصيليَّ الَّذي يصوِّر حرمان الشخصيَّة من شرب الماء من بداية عطشها واشتداد العطش لقدَّم كثيرًا من التّوصيف من غير أن يفي الحالة حقّها، فمن خلال هذا الأسلوب وضعنا الكاتب أمام مأساة الشَّخصيَّة مباشرةً وجعلنا ندرك أنَّها بداية لرحلة طويلة من العذابات والمرار.

يكفي أن تكون مثقفًا حتَّى تكون عدوًّا للسلطة، هذه من المفارقات الرهيبة الَّتي صوَّرها (سعد محمَّد رحيم) وهو كثيرًا ما كتب عن المثقَّف حتَّى في دراساته النقديَّة، فلم ينس في الرِّواية مأساة المثقَّف تحت سلطة التَّرهيب، فالمفارقة الغريبة أنَّ أساس الدول وتطوُّرها على جميع المفاصل يعتمد على العقل التنويري المثقَّف، إلَّا في هذه البلاد الَّتي كانت تهاب ذلك خوفًا على كرسي الحكم، ودائمًا ما تبحث عن عقليَّة القطيع حتَّى يسهل عليها قيادة الشعب كيفما تريد، وأينما تريد لذلك كان السبب الرئيسي لاعتقال (عامر) هو توجُّهه الثقافيُّ وعقليته التنويرية بعد وشاية من أحد رفاقه ،«"اتجاهك السياسي؟".

"مستقل".

"بدأنا نكذب".

"لم أنتم لأيَّ حزب".

...

"والكتب الَّتي تقرأها؟".

"أقرأ كلَّ شيء".

...

"مثلًا؟".

"الروايات.. الشعر.. كتب فنون وفكر".

"أي نوع من الفكر؟".

"سارتر، طه حسين، غارودي، كامو، وآخرون".

"مثلًا؛ ماركس، ماو، ريجيس دوبريه".

"نعم، أحيانًا".

"لِمَ لمْ تذكرهم"

"قرات أكثر لمن ذكرتهم أولًا"» [6]

فإنَّ توجُّه الشخصيَّة لقراءة كتب سارتر وماو وريجيس كان حسب وجهة نظر السلطة تهديدًا لها، أمَّا حسب وجهة نظر الشخصيَّة فإنَّ الأمر طبيعيٌّ لا يعدو أن يكون ثقافة عامَّة تريد الشخصية من خلالها بثَّ العدالة بين أبناء الشعب والمساواة، وهذا ما يقال

5 – سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص99

6– سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص102–103.

عنه صراع وجهات النظر، وهناك وجهة نظر ثالثة كانت دائمًا تحذر (عامر) من أنَّ نظرته هذه للعالم ستقرب نهايته حيث قال «أنا أتحدث عن المستقبل، حيث لن يبقى هناك فقير أو معوز، وسنكون أحرارًا".

"هذه الرومانتيكية يا عامر لا أراها تجدي، ويومًا ما ستكتشف أنَّ العالم لا يسير بحسب أهوائك وأفكارك.. سيصدمك الواقع يومًا ما ويكسر رأسك كما يقول أبي"» [7] لن يطول الوقت على نصيحة محبوبته الّتي وعدته بتكسير العالم لرأسه ليكون (عامر) بين أيادي الجلادين، إذن نحن أمام ثلاث وجهات نظر؛ شخصيَّة عامر الحالمة الَّتي تريد العدل والمساواة تحت ظلِّ سلطة شمولية دكتاتورية، ووجهة نظر محبوبته الواقعية الَّتي تعي الواقع وخطورة الخروج عن مسار رؤية السلطة، وجهة نظرها هذه الَّتي تمحو كلَّ صوت أو انحراف عن مسار رؤيتها، فالكاتب في هذه الرواية اهتم بتوضيح الواقع من خلال وجهات النظر فـ «الكتَّاب يجدون في استخدام محتوى وجهات النَّظر النَّفسية واستثمارها في صناعة الشخصيَّات التخيلية وخاصَّة في تأثيث حياتهم الداخلية والقبض على الانفعالات والتغيُّرات السيكولوجية الَّتي يكونون موضوعًا لها.» [8].

إذًا الكشف عن التوجُّهات النَّفسيَّة للشخصيَّات مهمٌّ في تحديد مصائرها في المعمار الروائي في رواية (فسحة للجنون) وكأنهم أشخاص حقيقيُّون يعشقون ويفكِّرون ويعتقلون ويتعذَّبون وتمحى ذواتهم ويتصادمون، وهذا ما يتمُّ خلقه من قبل الكاتب الحذق الَّذي يستعمل تقنياته في خلق الشخصيَّة وعالمها الداخلي والخارجي، فتمتلك الرواية بذلك «قدرة خاصَّة على جعل شخصياتها مقبولة كأنَّهم أشخاص واقعيون يخوضون تجربة معيشَة أو يمكن أن تُعاش، وذلك لدرجة أنَّنا نشعر إزاءهم بالتَّصديق ولا نتردَّد بالاعتراف بمهارة الروائي في خلق شخصيَّات حقيقيَّة إلى أقصى درجة حقيقيَّة ممكنة»[9].

يضعنا الكاتب في تحقيق آخر عن التوجُّه السياسي يبدأ التحقيق ليس بطرح السؤال إنَّما بطرح لتوجُّه ذاته وهذا ما لا يتيح للشَّخصيَّة حتَّى التفكير بالردِّ على أسلوب التحقيق «"فقط أميل إلى اليسار".

"ما معنى يسار في نظرك؟".

"أن تكون مع الفقراء، وأن تدعو لتحوُّلات اجتماعيَّة تقدُّميَّة".

"وحكومة الثورة أليست مع الفقراء؟ ألم تحقِّق تحوُّلات اجتماعيَّة تقدُّميَّة؟".

"بلى".

"إذًا؟".

"لستُ ضدَّ الحكومة".

"لكنك تحرِّض عليها"» [10]

يبدأ التحقيق بعد الجولة الأولى من التعذيب، والأسئلة تدور حول الأمر المعروف مسبقًا لدى المحقِّقين، ولكنهم يريدون أن تقرَّ الضحيَّة بذلك، فحسب وجهة نظر الجلَّادين وهذا ليس توجُّهًا ثقافيًّا أو فنًّا أو وأمنيات أن يعيش بسلام ومساواة، بل مشروعَ خطرٍ يهدِّد أمنها وسيادتها، وذلك واضح في هذا المقطع من التحقيق بعد أن سجل له أحد الواشين مقطعًا صوتيًّا بعد جلسة خمر بين

7 –سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص92.

8 - حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، (ط1)، (ت 1990)، ص300.

9 - حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص300.

10 - سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص104–105.

طلَّاب القسم الداخلي «فانساق الحديث تحت تأثير النشوة عن الفنِّ الَّذي سيغيِّر العالم، عن التخلُّف الَّذي نحن فيه، عن الحريَّة الَّتي هي مسعى كلِّ البشر، وأسُّ السَّعادة والكمال...

"يا حقير.. نحن متخلِّفون، وأنت بفنِّك السَّخيف ستغيِّر العالم وتغيِّرنا وتحقِّق السعادة والحرّية.. يا نغل، يا سافل، بفنِّك التَّافه ستواجه بنادقنا ودباباتنا وطائراتنا، يا ابن القحاب حتَّى عاشر ظهر"» [11] في هذا التَّحقيق تصل وجهات النَّظر إلى أقصى مستوى من الصراع أي رؤية الشخصيَّة للفن وكيف باستطاعته تغيير وجه العالم ورؤية السلطة الَّتي ترى أنَّ القوَّة تكمن في دباباتها وطياراتها، إذن الكاتب هنا لا يريد كشف مستوى تحقيق اعتيادي، إنَّما يريد كشف الشرخ الموجود بين رؤية السلطة ورؤية المثقَّف، فالشخصيَّة هنا تُجسِّد صوت المثقَّف، بل صوت الراوي نفسه فـ «الشخصية بوصفها عنصراً مهمًا من عناصر التشكيل الفنِّي لا يمكن فصلها عن شخصيَّة الكاتب؛ فعن طريق اندماج الشخصيَّة بالحدث، ونمو الحدث وتطوُّره من خلال أبعادها الجسديَّة، والنَّفسية، والاجتماعيَّة، تتبلور رؤية الكاتب وتتأطَّر آفاقها، فتتجلَّى وحدة الانطباع، ومن ثمَّ يمتلك الكاتب ناصية القدرة على التقدُّم بالبناء الدرامي. ومن هنا "نجد تطوُّرًا واضحًا في أساليب القصِّ الحديث ومستوى التعبير، فقد ظهرت تقنيات جديدة، وتبلورت نتيجة للمفاهيم الحديثة في بناء الشخصيَّة من جانب، وعلاقة الشخصيَّة بالراوي من جانب آخر... جعلت صوت الراوي يخفت وصوت الشخصيَّة يرتفع"» [12] إذن الشخصيَّة المحوريَّة في هذه الرواية هي المثقَّف المهمَّش الَّذي تكتم أنفاسه قوانين السلطة الدكتاتورية والَّذي إذا باح برؤيته ينتهي به المطاف في غياهب السجون. يطلق المحقق جملة على مسمع (عامر) «هذا الكتاب يمكن أن يكون إنجيل الثوَّار في كلِّ مكان".

أحسَّ عامر بانقباض في أحشائه.. رمش بعينيه ولم يحر جوابًا.. لم يجد جملة الرَّد المناسبة.

"ها.. سكتَّ.. كما ترى نحن نعرف كلَّ شيء".

"هذه وجهة نظر".

"وجهة نظرك".

"لم أقل هذا".

...

"بل قلت هذا يا عامر.. هذه عبارتك.

"لا أتذكر".

" حيث جئت سكرانًا إلى القسم الداخلي مساء 16 شباط، بعد العطلة الربيعية.. أدرت عينيك في وجوه الطلاب الجالسين في الصالة... رفعت بوجوههم الكتاب وهززته، وسألت: هل قرأتم هذا الكتاب.. من لم يقرأه فليقرأه.. هذا الكتاب يمكن أن يكون إنجيل الثوَّار في كلِّ مكان»[13].

إنَّ أسلوب التحقيق الَّذي تحوَّل من طلب المعلومات إلى إلقاء المعلومات على مسمع الضحيَّة هو كذلك أحد تقنيات الكاتب الَّذي لا يريد سرد كلِّ المعلومات عن السلطة بأسلوب تقريريٍّ أي كميَّة من المعلومات تقرُّ بها شخصيَّات عمله، إنَّما رسم شخصيَّاته وأطلقها حرَّة بالتعبير والحركة، وكأنَّما نحن إزاء عالم حقيقيٍّ وتحقيقات حقيقيَّة وأمام معاناة وألم وطرق تعذيب رهيبة جسديَّة ونفسيَّة،

11 - سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص106.
12 - صلاح أحمد الدوش، مجلة أمارباك، المجلد 7، العدد 20، ت 2016، ص125.
13 - سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص122-123.

فنحن هنا أمام عنف نفسيٍّ ولفظيٍّ يستخدمه المحقِّق لمحو ذات الضحيَّة وإذلالها، ليجعل القارئ غارقًا في فضاء الشخصيَّات يتعاطف معها ويغضب منها وعليها، ويكتشف المظلومة منها والظالمة، ويقف على حيل السلطات وكيدها وعنفها من أجل مصالحها الضيقة، وهذا ما لمسناه في هذا التحقيق، فبدأت بعد هذه الجلسة بأسلوب العنف الذي من خلاله تريد أن تقرَّ الشخصيَّة أنَّها مذنبة «الله يخليك سيدي.. أنا مسؤول.. فكَّرت أن أكون أنا المسؤول".

"وتنظم الجماعة؟".

"نعم".

"لتعملوا انقلابًا".

"لا سيدي، لا، لا".

وانخرط في بكاء بائس.. وتكرَّرت ضربات السياط على رأسه وظهره ومؤخَّرته وساقيه، وهو يصرخ بصوت أقرب إلى العواء ويبكي»[14]

إنَّ أسلوب العنف هنا غايته أن تقرَّ الشخصيَّة بمخططات وأفعال لن يكون لها صلة بالشخصيَّة حتَّى يمنح الجلاد الشرعيَّة لسوطه بجلد الضحيَّة، وهذا ما يندرج تحت العنف النَّفسي وصولًا إلى العنف الجسدي، رغم أنَّ الشخصية حاولت استخدام الحيل الدفاعية من حيث الاعتراف لتخفيف شدَّة التعذيب ومن ثمَّ الإنكار حتَّى لا يزداد الأمر سوءًا، ولا تخفى دلالة استخدام مفردة (العواء) صفةً لصراخ الشَّخصيَّة وبكائها الَّذي انتقل إلى طور بهيميٍّ خارج عن الطَّور الإنسانيِّ المعتاد، «تواجه الأنا ألوانًا من التَّهديد وأنواعًا من المخاطر تثير القلق والاضطراب فتحاول السيطرة عليها بطرق حلٍّ المشكلات واقعيًّا، وقد تصطنع أساليب من قبيل إنكار الحقيقة أو تشويهها. وهذه الأساليب هي الحيل الدفاعية.» [15] ورغم أنَّ الشخصية استعملت حيلها إلَّا أنَّ لغة الجلاد وأدواته كانت أقوى، فبعد جولات من التَّعذيب القاسي سجنت الشَّخصية بزنزانة انفراديَّة قذرة تأكل وتشرب وتقضي حاجتها وتنام فيها، أي هناك تناوب ما بين العنف الجسديِّ والنَّفسيِّ لإحداث ألم الجسد والذات بوحشية، ومن ثمَّ يتمُّ التَّحقيق بجولة أخرى، «ماذا تريدون منِّي؟ وكيف جئت إلى هنا؟".

فرقعة السوط الثانية تركت خطًّا مشتعلًا على عنقه وكتفه فصاح: " ما الذي يحدث؟ أهذا حلم أم حقيقة؟".

...

انهالت عليه ضربات السوط فرفع يديه لاتِّقائها، وكلُّ ضربة كانت تفتح فيه جرحًا قديمًا لم يكن قد اندمل تمامًا.. وما كانت تلك الضربات أن تطيح بالسكون البارد لذاكرته.. ذاكرته التي بدت له بحرًا من الوحشة والبياض وقد اكتظ بأرخبيلات معتمة

"تركناك شهرًا في زنزانة انفرادية وترجع تسألنا؛ من أنتم؟ وماذا تريدون؟ يا سافل، يا ابن القحبة".

...

"سأجعلك تتذكَّر كلَّ شيء"

"ماذا أتذكر أين أنا؟"

...

"اقتلني"

14 - سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص124.

15 - جابر عبد الحميد جابر، أستاذ علم النفس في جامعة قطر، نظريات الشخصية (البناء. والديناميات. النمو. طرق البحث. التقويم) دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط) (ت 1990) ص36.

"هذا ما سأتجنَّبه لشهر كامل.. سأجري عليك تجارب تعذيب لا تعرفها حتَّى جمهورية ألمانيا الديمقراطية الَّتي علَّمتني، قبل أن أدعك تلفظ آخر نفس.. سأطعمك لكلاب أجوِّعها أسبوعًا كاملًا

" قل لي ماذا تريد منِّي وسأنفِّذه لك؟. هات أوراقًا ودوِّن عليها جرائم الكون كلَّها من قابيل وهابيل وحتَّى يوم القيامة لأوقِّع عليها وأنا الممنون".

...

صاح المحقِّق:

"محسن"

...

"نعم سيدي".

"بُطل سفن آب".

من وراء الباب التقط قنينة خضراء فارغة لمشروب سفن آب وناولها للرجل الغاضب. ثمَّ حمل هذا الكائن الضئيل الجالس على الكرسي وقلبه على المنضدة وأنزل بيجامته المقلَّمة كاشفًا عن مؤخَّرته العجفاء ومباعدًا ما بين إليته:

"هات سيدي"

"لا أنا من سأدفعه"

صرخة عامر كانت متحشرجة ممزَّقة حيوانية... كان الوجع الذي أحسَّه ... لن تتحمَّله حتَّى الفيلة... وفي رأسه حدث انفلاق عظيم سرعان ما خمد، وغاب عن العالم» [16] في هذه الجولة من التعذيب هناك ثلاثة مستويات قاسية من لغة العنف الَّتي كانت النهاية لسلامة عقل الضحيَّة وذاكرته ومحو ذاتها، وهي العنف الجسدي والعنف اللفظي والاغتصاب العنيف (العنف الجنسي) الذي يمسُّ كرامة الشَّخص وذاته، فأمَّا التعذيب والعنف الجسديُّ فإنَّه «ينتج كيانات إنسانيَّة في حالة خراب، إن لم يكن جسديًّا، فهو بالتَّأكيد خراب نفسي.»[17] ولن يكون العنف الجسديُّ فقط لخراب الإنسان وتحطيم ذاته أي كرامته، بل اللفظي أيضًا الذي «يشمل الإكراه والاعتداء ومحاولة إقصاء الآخر بالقوة الفيزيائية الَّتي يمهد لها غالبا بالخطاب اللغوي، أو القوَّة الرمزيَّة التي تستخدم اللغة سلاحًا فيها. وتكون اللغة هنا نظامًا شاملًا للسيطرة على الآخر داخل اللغة الواحدة، أو بسطوة لغة أخرى»[18] أي إنَّ السبَّ والشتم وانتهاك الأعراض يحطِّم ذات الشخصيَّة، ونرى في التحقيق أنَّ المحقِّق يستعمل لغة نابية وحشيَّة بوصف أمِّ الضحيَّة بالعاهرة فهو يعرف مكانة الأمِّ لدى الإنسان، لذلك يحاول وبكلِّ وحشية أن يستعمل أكثر مخزون لغوي وحشي يستطيع من خلاله إحداث شرخ في ذات الشخصيَّة و«اغتصاب شخصيَّته، وهويَّته، ولتحديد ذلك ليس من الضَّروري استخدام سلاح ناري، وتوجيه اللطمات، فالكلام وحده يمكن أن يهين الآخر ويعمل بالتالي على اغتصاب شخصيَّته.» [19]، لن يكتفي الجلاد بهذا القدر من الوحشية بالعنف الجسدي واللفظي والنَّفسي، وإنما انتقل إلى الأكثر عنفًا وهو الاغتصاب البيولوجي الذي من خلاله يعنف الجسد ويهين الكرامة

16 - سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص147-148-149-150.

17 - مصطفى حجازي، الإنسان المهدور المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، (ط 2)، (ت 2006) ص128.

18- اللغة منبع العنف وعلاجه، د. جنان التميمي، جريدة العرب الاقتصادية الدولية، الخميس 8 مارس 2018.
https://www.aleqt.com/2018/03/08/article_1345606.html

-19 عنف دفاتر فلسفية نصوص مختارة، أ. ت محمَّد الهلالي، عزيز لزرق، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2009، ص34

ويمحو الذات، فهو مزيج من التعنيف النَّفسي المعنوي والجسدي، فراح المحقِّق يغتصب الشخصية بقنينة سفن آب وهذا العمل الشنيع أحدث ألمًا بيولوجيًّا وسيكولوجيًّا لا يمكن الشفاء منه أبد الدَّهر، لذلك إنَّ «العنف الرمزي أو العنف المعنوي أو الأخلاقي الذي كثيرًا ما نتجاهله، مع العلم أنَّ أضراره ونتائجه لا تقلُّ عن أضرار العنف المادي أو الجسدي، إن لم يكن أشدَّ منها وأمرُّ، فهو يتجاوز العظم إلى النخاع.» [20] فمن خلال أسلوب العنف الجسدي الممزوج بالعنف اللفظي والمعنوي والاغتصاب استطاع الجلاد أن يمحو ذات الشخصيَّة وذاكرتها وعقلها أيضًا «ماذا في ذهنك الآن؟".

"صور.. أحلام بعيدة".

"أحلام؟ احكِ لي واحدًا منها".

"أعبر شارعًا، وهناك فتاة تسبقني.. جسمها جميل".

"تعرفها".

"لا.. لم أر وجهها".

"وماذا حصل بعد ذلك؟".

"أحاول أتذكر، لكن هناك قطع، فراغ"» [21]

إذًا، لم يتركوا بعد جولات من التعذيب إلَّا بقعًا بيضاء في ذهن الضحيَّة، كلُّ هذه القسوة حتَّى يتمَّ محو ذات الشخصيَّة وإحداث أكبر ضرر في تكوينها النَّفسي، وبعد جولات من التعذيب بدأت الشخصية تفقد السيطرة على ذاكرتها وعلى لغتها؛ إذ إن جملها غير مترابطة وغير مفهومة، هي فقط صور مبعثرة من ذاكرة خربة، غير أنَّ الجلاد لم يتوقف عن عنفه وادّعى أنَّ هذا الأسلوب لا ينطلي عليهم وسيجعل الضحية تعيد ذاكرتها بطريقته، «غير أنَّ مسًّا آخر في مؤخَّرة الرأس لبثٍّ أطول من سابقتها أحدث صدعًا فادحًا داخل الجمجمة وألمًا لم يحتمل حجمه فراح يخور مثل حيوان بدؤوا لتوّهم بذبحه... واستمرَّ عامر يقفز ويخور حتَّى استسلم أخيرًا بعد أن طوَّقته ستُّ سواعد مفتولة أشبعته ضربًا وركلًا...قال لهم إنَّ قافلة من الشياطين في طريقها إلى هنا. وإنَّ الكلاب فرحانة لأنَّ الأبقار تلعب الشطرنج، وأنَّ اللون الأحمر صار مثل الأزرق، وأنَّ الرمال تحنُّ أيضًا للقمر... " لا تفكر بالشمَّاعية.. لن تخدعنا بادِّعاء الجنون... وانهالت عليه السياط فانهار ووقع وكان يلهث. وأطلق ضحكة متعبة وهو يردِّد "هيْ، هيْ، [مخبّل].. هيْ، هيْ [مخبّل]» [22].

في هذا المشهد تحديدًا يجب أن يقف قارئ الرواية أو ناقدها ليتأمَّل الصور والمشاهد والحقائق التي بثَّها الكاتب عن حقيقة طالما تستَّر عليها الإعلام، فهي بمثابة وثيقة تدين سلطة حكمت شعبًا لمدَّة ثلاثة عقود، فالرواية هي لغة الإنسان من أجل الإنسان فأعظمها وأكثرها تأثيرًا هي التي تحمل هموم الإنسان وتطلُّعاته وأحلامه ووجعه وخوفه. ففي هذا المشهد يجعلك الكاتب أمام وحشية لا يتحمَّلها العقل البشري، وكأنَّما الضحيَّة هدَّدت الأمن الكونيَّ، فحين تعود إلى الوراء وتجد أنَّ الشخصيَّة لا ذنب لها إلَّا أنَّها ذات تفكير مختلف وأكثر انفتاحًا، فتقول إذن نحن أمام عقم إنساني ومنطقي وأخلاقي، فالرواية وإن كانت تتحدَّث عن الحرب الإيرانية العراقية أي حرب الخليج الأولى، وإن كان تصوير مشهد الحرب في إحدى مدن العراق الصغيرة جدًا، يسرده لسان مجنون

20- سيكولوجية العنف: عنف المؤسسة ومأسسة العنف، احمد اوزي، العدد 36، منشورات مجلة علوم التربية، ت 2014، مطبعة النجاح الجديدة، دار البيضاء، المغرب، ط1، ص9

21 - سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص151.

22 – سعد محمَّد رحيم، فسحة للجنون، ص159-160.

وبمنظوره غير أنَّ الكاتب بأسلوبه اللغوي وتقنياته السردية، وبناء المعمور الروائي وحوارات شخصيَّاته واختلاجاتها النَّفسيَّة وصوره الوصفيَّة والاستعارية والتشبيهية وتحديد المكان والزمن، وباستخدامه تقنيّة الخطف إلى الوراء، ومن خلال كشفه كيف وصل الحال بعامر ليصبح حكو المجنون، بثَّ لنا أساليب السلطة، وقسوتها، وتخلُّفها، ووجهة نظرها الحادة، وتعاملها مع وجهات النظر الَّتي تخالفها الرأي حتَّى يصل بالقارئ إلى بداية الحرب واستعارها، فأنت هنا لا تسأل كيف ولِمَ بدأت الحرب ما دمت أمام تصوُّر كامل كيف تتعامل السلطة مع كلِّ ما يختلف معها، فلا تعرف طريقة غير العنف، وإن اختلفت الدولتان (العراق وإيران) في وجهات النظر كان هناك ألف أسلوب غير العنف. نهاية القول، كان جسد عامر عبارة عن وثيقة دوِّنت عليها وحشية السلطة وكان لسان حال آلاف بل ملايين غيَّبتهم سياطها وجلادوها. فثيمة الحرب الطويلة الَّتي حصدت ملايين الأرواح، وخرَّبت وهجَّرت وشرَّدت الملايين، وعنف السلطة وتعاملها مع أبناء شعبها لا يمكن أن يستوعبها عقل غير (حكو أو حكمت المجنون)، فالرواية كانت عالمًا من ثيمات مختلفة، وهذا ما أعطاها واقعيتها فكان الحبُّ والموت والسجن والسوط والفتاة الجميلة والحرب المجنونة والرسَّام العاشق والمجنون كلُّها صورة لواقع المجتمع العراقي آنذاك، فإذن نحن أمام رواية تعدُّ بمثابة وثيقة تاريخية جسَّدت هموم شعب كامل في مرحلة زمنية قاسية.

الخاتمة:

استطاعت رواية فسحة للجنون التعبير عن معاناة الفرد العراقي بوقوعه بين سندان الحرب ومطرقة دكتاتورية السلطة، واستطاع الكاتب خلق عالم حقيقيٍّ تتحرَّك فيه الشخصيات بحريَّة دون تقييد، وفرض رؤية الكاتب وصوته عليها فهي تحبُّ وتتألَّم وتتعذَّب وتجنُّ وتمرح في أرض المعارك المحرَّمة.

لغة الرواية رتيبة في أوَّل الأمر من حيث تراتبية الزمان والمكان ثمَّ تنتقل إلى اللُّغة الَّتي يتشظَّى فيها الزمن، وتختفي ملامح المكان، والعنف في الرواية بأنواعه كلِّها (الجسديُّ واللَّفظيُّ والنَّفسيُّ والجنسيُّ) وحشيٌّ بطريقة رهيبة وهو بمثابة وثيقة تدين وحشيَّة السُّلطة وقسوتها.

لم يضع الكاتب لشخصيَّته سببًا متوقَّعًا لتتعرّض للسّجن والتّعذيب مثل الخروج على الحاكم أو استعمال العنف والتخريب والقتل، بل لأنَّها تحمل عقلًا تنويريًّا، وتوجُّهًا فكريًّا تهابه السلطة أو بمعنى آخر تحمل حرية تفكِّر ورؤية إنسانية، رغم أنَّ الحرب هي الثيمة الَّتي أخذت الحيِّز الأكبر من لغة الرواية إلَّا أنَّ ثيمات أخرى لن تغيب كالحبِّ والوفاء والصَّداقة وكذلك ثيمة وحشيَّة السلطة.

جنون الشخصيَّة في الرِّواية مشكوك فيه في بعض المواضع ليكشف لنا الكاتب ذكاءها ولغتها السليمة وردودها المنطقيَّة، وهذا ما يجعل القارئ بين الشكِّ واليقين بين جنون الشخصيَّة أو ادِّعائها، فقد تكون خرجت بعد جولات التعذيب بعقل خرب وذاكرة بيضاء أو بعد أن ذاقت هذا العذاب كلّهَ اختارت الجنون فسحة لحريَّتها وبوحها بكلِّ ما تريد.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل: (501100020595).

المصادر:

1. رحيم، سعد محمَّد، فسحة للجنون، دار سطور، بغداد، ط1، 2018.

المراجع:

2. حجازي، مصطفى، الإنسان المهدور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، (ط 2)، (ت 2006).
3. بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، (ط1)، (ت 1990).
4. ر. م. ألبيرس، تر: جور سالم، تاريخ الرِّواية الحديثة، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1982.
5. اوزي، أحمد، سيكولوجية العنف: عنف المؤسسة ومأسسة العنف، العدد 36، منشورات مجلة علوم التربية، ت 2014، مطبعة النجاح الجديدة، دار البيضاء، المغرب، ط1.
6. الهلالي، أ. ت محمَّد، لزرق، عزيز، عنف دفاتر فلسفية نصوص مختارة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2009.
7. حسن، آلاء محسن، العنف ضدَّ الإنسان في الرواية العراقية قراءة في رواية حيدر كاظم العموري "لا حياة في هذه المدينة، العراق/ جامعة المثنى/ كلية التربة والعلوم الإنسانية، المصدر: مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، الناشر: مكز جيل البحث العلمي، ع 67، يناير 2012.
8. رحيم، سعد محمَّد، الحريزي، حميد، «فسحة للجنون»، مجلة الكلمة، العدد 130 فبراير 2018.
http://www.alkalimah.net/Articles/Read/19560
9. التميمي، د. جنان، اللغة منبع العنف وعلاجه، جريدة العرب الاقتصادية الدولية، الخميس 8 مارس 2018.
https://www.aleqt.com/2018/03/08/article_1345606.html
10. جابر، جابر عبد الحميد، أستاذ علم النفس في جامعة قطر، نظريات الشخصية (البناء. والديناميات. النمو. طرق البحث. التقويم)، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط) (ت 1990).
11. هلال، محمَّد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، د. ط، 1986.